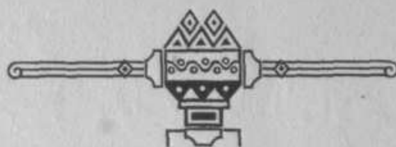
هنري الثامن
وزوجته السادسة

رواية تاريخيَّة غراميَّة



معرَّبة بقلم

خليل بيدس

منشئ مجلة النفائس العصريَّة

طُبعت في القدس بمطبعة دار الايتام السورية سنة ١٩١٢

تمهيد

ابتدأت النهضة الفكرية في اوروبا منذ القرن السادس عشر ، فمحت كثيراً من اوهام القرون الوسطى وخرافاتها ، وأطلقت العقول من قيودها وسارت بالامم في جادة الاصلاح الحقيقي

ظهرت هذه النهضة بادئ بدء في ايطاليا ، ومنها انتقلت الى فرنسا ، ثم الى انكلترا ، وانتشرت في هذه البلاد في اواخر حكم الملك هنري الثامن — اي في اواسط القرن السادس عشر ، وهو الزمن الذي جرت فيه حوادث هذه الرواية

كان هنري الثامن في حداثتهِ ميالاً الى الانخراط في سلك رجال الدين غير انهُ بعد وفاة اخيه (ارثور) رقي عرش المملكة الانكليزية (سنة ١٥٠٩) واقترن بكاترينا اراغون ابنة فرديناند ملك اسبانيا

وكان هذا الملك على جانب عظيم من الافراط في ملذاته وشهواته فعزم ان يطلِّق زوجتهُ كاترينا ليقترن بجنة بولين ابنة الكونت طوماس بولين التي كانت قاطنةً اولاً في فرنسا . فلما جاءت لندن ورآها هنري أَحبَّها ووطن النفس على التزوج بها . غير ان البابا لم يوافق على هذا الطلاق الغير القانوني ، فجاهر هنري بمناوأة رجال الدين واضطهادهم

وفي سنة ١٥٣٣ اقترن بجنة المذكورة واعترف مجمع الاساقفة في كنتربري بعدم قانونية قران الملك بكاترينا اراغون لانها امرأة اخيه. وسقطت من ذلك الحين سلطة البابا في انكلترا ، وأعلن هنري نفسه رئيساً للكنيسة

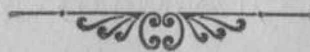
الانكليزية . وكان ذلك تمهيداً للانقلاب الديني الذي حدث في تلك البلاد

وكان قبل هذا العهد ان رجال المذهب البروتستاني قد شرعوا بنشر تعاليمهم في البلاد الانكليزية واستمالوا اليها جمهوراً من الشعب . غير ان هنري بعد انفصاله عن رومية لبث كاثوليكياً ولم يعضد جانب المبشرين . وبسبب ذلك كثرت المشاغب في رعيته واحتدم الخصام بين رجال بطانتهِ لانهم انقسموا الى حزبين متضادَّين بروتستان وكاثوليك . وكانت زعامة الحزب الاول لكرانمر اسقف كنتربري وللكونت غرتفورد ، وزعامة الحزب الثاني للدوق نورفولك ولغاردنر اسقف ونشستر

وكان النزاع يزداد سعيراً بين الحزبين وكلٌّ منهما يجتهد في استمالة الملك الى جهتهِ حبَّ الفوز والانتقام من الحزب الآخر . اما الملك فكان تارةً يميل الى البروتستان فينكِّل بالكاثوليك ، وطوراً يميل الى الكاثوليك فيمثِّل بالبروتستان . ولبث الامر كذلك الى ان انتهى هذا النزاع اخيراً بانتصار البروتستان على عهد الملكة اليصابات (ابنة هنري الثامن)

وفي هذه الرواية تفصيل لاشدّ وقائِع الخلاف ، وتاريخ اقتران الملك هنري بزوجته السادسة ، وذكر زوجاته الاخر ، وما تخلَّل كل ذلك من الحوادث والعِبَر والغرام

وهي من وضع ف . ملباخ الكاتبة الالمانية المشهورة ، فعرَّبناها عن اللغة الروسية ببعض تصرُّف ، ونحن نرى انها من افضل الروايات قَصَصاً واكثرها فائدةً . فعسى ان يتلقاها جمهور القرآء بما هي اهلٌ له من الاقبال وهذا حسبنا



الفصل الاول

الاب الروحي

الحادثة التي نرويها ابتدأت سنة ١٥٤٣

ففي هذه السنة اقترن الملك هنري الثامن الانكليزي بكاترينا بار ارملة البارون ليتيمر ، وكانت لم تزل في شرخ شبابها ومنتهى نضارتها ، بهية الطلعة رائعة الحسن

ارتقت هذه البارونة الى العرش ووُضع التاج الملوكي على رأسها فحسدتها بنات الملوك والامرآء والنبلاء وتمنّت كلّ واحدة منهنّ ان تكون في مقامها . غير ان كاترينا ما كادت تخرج من المعبد وهي الى جانب زوجها الجديد حتى اخذ الحزن من فؤادها كل مأخذ وأمست تنظر الى المستقبل من ورآء غيوم الغموم وتعتقد ان حياتها اصبحت ممزوجة بسموم الهموم

عرفت كاترينا ان هنري قاسٍ ظالم وانهُ قد اقترن قبلها بخمس نسآء فخشيت ان يصيبها ما اصابهنّ وتكون كالباحثة عن حتفها بظلفها

انتهت الحفلة الدينية وخرج العروسان الى القصر الملوكي تحفّ بهما المهابة والجلال ويتقدم موكبهما غاردنر (اسقف ونشستر) وكرانمر (اسقف كنتربري) ليباركاهما ويصلّيا معهما قبل الشروع في حفلات التهنئة الرسمية

وبالرغم عما خامر الملكة وقتئذٍ من الخواطر المضطربة والاحزان الداخلية فانها لم تنسَ موقفها بل تجلّدت وسارت بثبات جأش وعظمة الى ان بلغت ردهة الاستقبال المختصة بها . واتّباعاً للعادة المرعية في مثل هذه الاحوال

ينبغي للملكة ان تنفصل عن الموكب عند باب هذه الردهة ثم تدخل بصحبة الاسقفين ووصائفها الى مخادعها الخصوصية . غير ان كاترينا اوعزت الى الاسقفين ان ينتظراها في الردهة ودخلت بوصائفها فقط الى غرفة الزينة

فدهش الاسقفان ولبثا واقفين في الردهة ينتظران امر الملكة وقد خشيا ان يكون ذلك مدعاةً الى غضب الملك لانهُ هو بنفسهِ قد كتب ترتيب الحفلة وأمر بالقيام بجميع تفاصيلها ودقائقها وفرض عقاباً اليماً على كل من يجسر ان يخالف شيئاً منها

مضت بضع دقائق والاسقفان واقفان لا ينبسان ببنت شفة وقد وقف غاردنر بالقرب من احدى النوافذ واخذ يلهو بنظره الى السحب السابحة في الفضاء . بينا كان كرانمر يتأمل في صورة هنري الثامن المعلّقة على احد جدران الردهة وقد رآها وقتئذٍ جامعةً بين العظمة الملوكية والقساوة الفظيعة وحزن في قلبه لانهُ بارك اليوم زفاف هذه المرأة الوديعة الى هذا الملك الهائل وقادها بيده الى الشقاء المحتوم كما قاد قبلها امرأتين اخريين الى العرش ثم شيعهما عندما سيقتا الى النطع . . . فهل يكون نصيب هذه كنصيب حنة بولين وكاترينا غوفارد ، وهما الملكتان اللتان لم ترتقيا الى العرش الاّ لتذوقا اصناف العذاب والموت الزؤام ؟ . .

هل كُتب ايضاً لكاترينا بارّ في لوح القدر ان يُضرَب عنقها بيد الظالم بعد هذه الساعات القليلة التي ستقضيها في الابهة والجلال ؟ . . كلمةٌ منها في غير محلها ، او ابتسامةٌ يرتاب فيها الملك — كافيةٌ للقضاء عليها بدون شفقة او رحمة . لان الملك هنري كان سيّئ الظن جداً ، والويل لمن يرتاب باخلاصهِ ومودته . . .

جاشت هذه الخواطر في ذهن كرانمر فزادتهُ قلقاً ورأى من نفسهِ ميلاً شديداً الى الاهتمام بامر الملكة والسهر على حياتها وراحتها ولو كلفهُ ذلك بذل حياته . ولما كان الاسقف غاردنر عدوَّه الاشدّ وكان يتوقَّع شرًّا من جهتهِ وقد ثبت لديهِ انهُ سيكون من اعداءِ الملكة ايضاً رأى ان ينسى الان ما بينهما من اسباب العداوة فيتقرَّب منهُ ويستميلهُ الى جانب الملكة ويمكّن بينهما صلات الصداقة . وبهذا الفكر تقدَّم اليه باشاً

وكان غاردنر لا يزال في مكانهِ ينظر الى السحب ويتأمل فيما آلت اليهِ حالة الملك ويودّ ان يتزلَّف اليهِ بخدمة يتمكن بها من قهر اعدائهِ والفوز بمراده . وقد رأى في المدة الاخيرة ان الملك يحبّ كرانمر وقد قرَّبهُ اليهِ وجعلهُ في بطانتهِ الخاصة . فاستشاط غضباً وأقسم ان ينتقم من رصيفهِ بكل وسيلة يراها . فلما رآه الان بازائهِ كتم ما ثار في نفسهِ من حب الانتقام واستقبلهُ ببعض البشاشة

فقال لهُ كرانمر — اني اودُّ من صميم القلب ان تختارك الملكة ابا روحياً لها ومرشداً لنفسها ، لانك ، بالنظر الى المواهب الروحية التي خصتك العنايةُ بها ، تستطيع ان تخدم جلالتها خِدَماً وفيَّة وتكون لها خير المعين والهادي في سبيلها الشاقّ

فهزَّ غاردنر رأسه وتغيَّر لونهُ وقال — انت واثق بان الملكة لن تختار سواك ابًا روحياً لها ، وانما ابتدرتَني بهذا الكلام لتستكشف ضميري وتطلع على سريرتي ، او لعلك تدهش لوقوفي هنا قياماً بطالب الحفلة ، بل ربما تحتقرني كما احتقرتُ انا نفسي

— ليس في كل ذلك ما يدعو الى الاحتقار لاننا اثنان هنا وليس للملكة

الاَّ ان تصطفي احدنا حسبما تلهمها نفسها

– اذاً فانت عالم بان الملكة لن تختارني ابًا لها !

– لا علم لي بشيء من ذلك الاَّ ما قلتهُ الان ، وانت تعلم ان اسقف كنتربري لا يتكلم الاَّ الصدق

– الكل يعلمون ذلك . . . كما انهم يعلمون ايضًا ان كاترينا بارّ شديدة الشغف باسقف كنتربري ، واذ ادركت ما طمحت اليهِ نفسها وصارت ملكةً فهي ترى من اقدس واجباتها ان تظهر له شكرها وارتياحها

– لعلك تريد ان تقول ان كاترينا لم تصر ملكة الاَّ بمساعيَّ !

– قد يكون ذلك

– انت واهم يا اخي لاني لا أتداخل قط في مثل هذه الشؤون

– ولكن لا يمكنك ان تنكر ان الملكة من اشدّ انصار الديانة الجديدة التي نشأت في جرمانيا وانتشرت كالطاعون في كل اوروبا بالرغم عن الحرم الهائل الذي اصدره الاب الاقدس ضد لوثيروس الكافر زعيم هذه الشريعة او هذه الهرطقة الجديدة

– لا تنسَ ان حرمًا كهذا وُجّه ضدّ هنري الثامن ايضا وبسببهِ أُمرنا ان لا نلقِب البابا بالاب الاقدس ، وانت اول مَن اعترف برئاسة الملك للكنيسة

– نعم ولكن . . .

– ولكن ما لنا ولمثل هذه المجادلات العقيمة في مثل هذا الموقف ؟ نحن الان في ردهة الملكة ومن اخصّ واجباتنا الاهتمام بهذه المرأة التى اختار لها الله نصيبًا سعيداً

– وهل انت واثق بنصيبهـا السعيد ؟ ألا تعلم ان خمس ملكات غيرها قد سبقنهـا الى بجبوحة الرغد في هذا القصر ولكنهن لم يلبثن ان استحال هناؤهن الى شقآء وسعادتهن الى سعير العذاب والموت ؟

– انا أعلم كل ذلك ولذا تراني مهتماً بازالة كل خطر من سبيل هذه الملكة الجديدة وأتوسل اليك ان تبادر انت ايضاً للأخذ بيدها وارشادها الى ما يضمن راحتها وهناءها

– تراني مستعداً لمساعدتها في كل شيء اذا هي نهجت السبيل القويم ونبذت كل اضاليل هذه التعاليم الجديدة التي يذيعها الهراطقة والكفرة

– انت تدعوها اضاليل ولكن اصحابها يعتقدون صحتها وسموها وما دام الجميع موءمنين بالله فما لنا ولهذه الاختلافات الطفيفة العَرَضية التي يتشبث بها الناس ويُعرضون عن الجوهر ؟

– قل ما تشآء واما انا فأقول ان كل مَن ليس معي فهو عليّ واذا كانت الملكة من اشياع هذه الديانة الجديدة التي جاءتنا من جرمانيـا وسويسرا فالويل لها ثم الويل لها

– واذا لم تخترك الملكة لتكون ابًا روحيًا لها فهل تعدّ لها ذلك اثماً ؟

– ذلك لا يحتاج الى برهان لانها بهذا الاختيار انما تظهر مكنونات قلبها وسريرتها

– فانا أتوسّل الى الله ان يلهم الملكة اختيارك ... مسكينة هذه الملكة ! ان زوجها الملك قد خوّلها حرية اختيار الاب الروحي وهو يريد بذلك ان يظهر لها حبّهُ وعطفهُ فانقلب ذلك عليها وبالاً فلو اختار هو لها الاب الروحي لكان انقذها من هذه التجربة

وفي هذه اللحظة فُتح باب الردهة المؤدّي الى مخادع الملكة ودخلت الى الردهة اللادي حنة ابنة الكونت دوغلاس الوصيفة الاولى للملكة وقالت بصوت متلجلج – ان جلالة الملكة تدعو سيادة اسقف كنتربري ليدخل الى غرفتها ويصلّي معها

فانطلق الاسقف كرانمر للحال الى حيث كانت الملكة وهو يقول في نفسهِ – ليكن الله معكِ يا كاترينا بارّ ويردّ عنكِ كيد الاعداء الاشرار

وما كاد كرانمر يتوارى عن الابصار حتى اقبلت اللادي حنة نحو الاسقف غاردنر فانحنت امامهُ وقالت بصوت خافت – رحماك يا مولاي فقد سعيتُ جهدي لاحمل الملكة على اختيارك فلم أفز بطائل

فابتسم غاردنر وقال – لا تعتذري ايتها اللادي فانا لا انكر اخلاصكِ لي وتفانيك في خدمة الكنيسة وهي ستكافئكِ خير مكافأة . اما الملكة...

– فجاحدة وكافرة فالويل لها

– هو ما تقولين ايتها الابنة الشريفة .. فهل انتِ مصمِّمة على متابعة خدمتكِ للكنيسة بامانة ؟

– اني مستعدة لسفك دمي في هذا السبيل

– بوركِ فيكِ فسنقهر اذاً كاترينا بار ونسوقها الى النطع

وما كاد غاردنر يتمّ كلماته حتى دخل الردهة فجأة الكونت دوغلاس والد حنة وكان قد سمع آخر كلام الاسقف فقال – الى النطع ! الى النطع ! .. نعم يجب ان تموت كاترينا بار لاننا سنراقب جميع حركاتها وسكناتها ونكون لها بالمرصاد .. ولكني أرى ان حديثكما في هذه الغرفة المختصة بالملكة لا يخلو من خطر فيجب ان نختار لمثل هذه المؤامرة فرصة

اخرى وفي غير هذا المكان . وفضلاً عن ذلك فان جميع رجال البلاط قد اجتمعوا في الردهة الكبيرة وهم الان ينتظرون قدوم الملك لتقديم شعائر التهنئة لهُ وللملكة . فلنذهب اذًا يا مولاي الاسقف لئلاَّ يرتاب بك الملك

فتمتم غاردنر ببضع كلمات وسار يتبعهُ دوغلاس وابنتهُ . وفي الطريق همس الاب في اذن ابنته قائلاً — ابشرك بان كاترينا بار لا تلبث ان تسقط وتصيري انتِ الزوجة السابعة لهنري الثامن

وفي هذه الاثناء كانت الملكة جاثية في غرفتها امام الاسقف كرانمر تصلّي بحرارة وهو يبتهل الى الله ان يهبها القوة والثبات لتقوى على كل تجربة وتكون بعيدة عن كل خطر

الفصل الثاني

الملكة وصديقتها

كان قصر الملك هنري في يوم عرسه مزدانًا بالرايات وجميع انواع الزينة . وقد اقيمت الحفلات البهية وظهر الملك والملكة في احدى شرفات القصر فحيتهما الجماهير ودعت لهما بطول البقآء ودوام الرغد . ثم جلسا في ردهة العرش الكبيرة حيث احتشد جميع اللوردات والنبلآء ودعوا لهما . وكانت الملكة في ذلك النهار طلقة المحيا باسمة الثغر تؤانس الجميع وتبش للجميع وهي تودُّ ان تنقضي هذه المجاملات الكاذبة لتيقنها ان اكثر اولئك المهنئين والمهنئات انما كانوا يهنئونها بشفاههم ويضمرون لها في قلوبهم

كل شر ويتوقعون انقلابها وسقوطها الى الحضيض لانها كانت بالامس واحدة منهم فاصبحت الان ملكة نافذة الكلمة عظيمة الشان

ولما كان المساء أقيمت في القصر مأدبة شائقة دُعي اليها جميع رجال البلاط والشرفاء. وبعد المأدبة مُثِّلت رواية رومانية مجونية

الى ذلك العهد كانت الروايات التمثيلية تؤخذ كلها من الحوادث الدينية . وهنري الثامن هو اول مَن ادخل في البلاد نوع تمثيل الروايات المدنية وكما انهُ جرّد الكنيسة الانكليزية من رأسها الروحي اي بابا رومية فقد جرّد ايضاً مراسح التمثيل من صبغتها الدينية وجعل لها صبغة مدنية محضة

ولما انتهى التمثيل عادت الملكة بصحبة وصائفها الى مخادعها لترتاح قليلاً من جميع هذه الحفلات المملّة ولم تلبث ان انفردت في مخدعها الخاص فتنفست الصعداء واستدعت وصيفتها الاولى (حنة دوغلاس) وقالت لها— اقفلي يا حنة الباب وأسدلي السجوف على النوافذ لئلا يراني او يسمعني احد غيركِ . فأنت عشيرة صباي واريد ان اكاشفك في هذه الخلوة بما في نفسي واحدثكِ عن سنوات الحداثة السعيدة التي قضيناها معاً .. آه يا حنة ! اني تعسة وشقية وحمقاء لاني تركتُ قصر والدي وجئتُ الى هذا السجن المظلم ومقرّ العذاب الدائم

ولما قالت ذلك غطت وجهها بيديها وبكت بمرارة . فذعرت حنة وشخصت اليها ببصرها وهي لا تكاد تصدق عينيها. ثم دنت منها فجلست على مقعد صغير عند قدميها واخذت يدها فقبلتها وقالت بنغمة الرياء والمداهنة — عجباً يا ذات الجلالة فكيف يجوز للشقاء ان يجد سبيلاً الى قلبكِ وانت في اوج مجدكِ وسؤددكِ ؟ .. اني لم اكد اسمع بشرى

زفافكِ الى الملك حتى طرتُ فرحًا وحالما وردني امركِ بالمثول بين يديك تركتُ دوبلين وجئتُ مع والدي على جناع الشوق وانا اودّ ان اراكِ في احسن حالات الحبور والسعادة ولم أخشَ الاَّ ان تنساني صديقتي وتلهو عني باسباب عظمتها وعلوّ شأنها

فتنهدت الملكة وقالت — وماذا رأيتِ يا حنة ؟ — ألم تري ابتساماتي المتواصلة طول هذا النهار ؟ ألم تريني مرتدية بالخز والديباج ، وقد طُوّق عنقي بالجواهر والالماس ، وزُيّن رأسي بتاج الملك الوهّاج ، وجلس الى جانبي الملك ؟ رأيتِ يا حنة كل هذا طول النهار فاسمحي لي الان ان اغتنم هذه الدقائق القليلة لاحادثك كرفيقة لكِ تريد ان تشكو اليك ما يخامر قلبها المتألّم . طول النهار وانا انتظر هذه الدقائق لاخلو بكِ وأُطلق لدموعي العنان. و من احقُّ منكِ بهذه الشكوى وانتِ صديقتي المخلصة ورفيقتي المحبوبة ! . . نعم يا حنة انتِ وحدكِ تعلمين ما يجول في خاطري وانتِ وحدكِ تستطيعين ان تخففي عني بسعة صدركِ ولطف اخلاقك

فجزعت حنة وقالت — مسكينة انت يا كاترينا ! مسكينة انت ايتها الملكة !

فألقت الملكة كفها على فم صديقتها وقالت — لا تناديني بهذا الاسم لانه شديد الوقع في قلبي بل هو رمز الى كل هول وبلاء . . . ألستُ الزوجة السادسة لهنري الثامن ؟ فهل من المستحيل ان يسوقني سوء البخت الى ما ساق غيري من الهوان ؟

ولما قالت ذلك ملأ الدمع جفونها وصعد الدم الى وجهها . فنظرت اليها حنة بشماتة وقد أخفت في صدرها سرورًا عظيماً ثم قالت — لستُ

اری ما یدعوكِ الى هذا الخوف الان ! فالملك يحبكِ وقد شغف بكِ ولم تفارق عيناه وجهكِ لحظة عين كما رأى ذلك جميع رجال البلاط فسكِّني روعك يا عزيزتي ولا تسترسلي في مثل هذا الحزن

فامسكت الملكة بيدها وقالت همساً — الملك يحبني واما انا فأرتعش امامه بل ان حبه يخيفني لان يديه ملطختان بدم الابرياء ولما رأيته اليوم ببرفيره خُيّل لي ان هذا البرفير سيُصبغ بدمي ايضاً

فابتسمت حنة وقالت — لا شك انك مريضة اليوم يا كاترينا ولعل سبب كل ذلك هذه السعادة الغير المنتظرة فتوتّرت اعصاب نفسك ومثّلت لك كل هذه الاوهام

— كلاً ايتها العزيزة بل هي افكاري الحقيقية منذ اختارني الملك لأكون زوجةً له

— اذا كان ما تقولينهُ صحيحا فلماذا لم تردّي طلبه عندما جاءكِ خاطبًا ؟

— ذلك لاني لا اريد الموت في هذه السن فلو رفضتُ طلبه وقتئذٍ لحكم عليّ بالموت العاجل . والان وقد زُففتُ اليه فأنا ارى نفسي أتعس امرأة على وجه الارض ولم اكن لأشعر بالشقاء قبل ان صرت الى هذه الحالة

— كيف لم تشعري بالشقاء وقد كنتِ يتيمة من الابوين ؟

— نعم فقد فقدتُ والدتي وانا صغيرة السن ولما فقدت والدي شعرتُ براحة في نفسي لانهُ كان قاسياً ظالماً ليس فيه شيءُ من عواطف الرقة والحنو الوالدي

– وقد كنتِ متزوجة ايضاً !

– لم اكن متزوجة وانما والدي باعني بيعاً للّورد نفيل وهو شيخ ضعيف طاعن في السن ولكنهُ من اكابر الاغنياء فلبثت على تمريضه بضع سنوات الى ان مات فورثت ثروته الطائلة واملاكه الفسيحة وكنتُ في هذه الحالات الثلاث مُستعبَدة اولاً لابي ثم لزوجي اللورد ثم لثروتي واملاكي . غير اني في حالتي الاخيرة كنت سعيدةً لاني تعرَّفت بكِ وبوالدكِ وقضيتُ واياكِ حيناً من الدهر كلهُ افراح وغبطة . ولما جاء ابن اخي زوجي وادَّعى بأحقية هذه الاملاك له وحكمت له المحكمة بذلك فرحت لاني تخلصتُ من هذا العبء الثقيل ولكنني حزنت لفراقكِ . ثم جئت الى لندن وفي يقيني اني اصبحت حرةً مالكةً قياد نفسي ولم اكن ادري ان القدَر خبأ لي خطباً جديداً لا تُقاس به جميع الخطوب

– وما هو هذا الخطب ؟

– هو اني اصبحت ملكةً

– وهل هذا سبب شقائك ؟

– نعم بل هو شقآئي الاكبر لانه يلازمني ويضطرُّني الى الحذر والخوف الدائِم بل اني وانا في هذه الحالة أحيا واذوق جميع آلام الموت . ولما رأيت الملك لاول مرة حينما جاءني خاطباً واعترف بحبه اياي لم اتصوَّر امامي ملكاً بل جلاَّداً وخُيل لي اني أرى عند قدميه جثثاً هامدة . وللحال أغمي عليَّ وسقطتُ الى الارض . ولما ثاب اليَّ رشدي رأيت نفسي بين ذراعَي الملك وهو ينظر اليَّ نظرات تشفُّ عن فرط هيامه بي وقد اعتقد ان ما اصابني لم يكن الا عن تأثير السعادة بي . واخيراً قبَّلني بلهفة

ودعاني عروسه . وكنت وقتئذٍ أسمع كلامه ولا أعي منهُ شيئاً ولم تكن لي جرأة على رفض طلبه غير اني بعد ذلك اخذت اتوسّل اليه ان يرى له عروساً سواي من بنات الملوك والامرآء لاني غير اهل له . اما هو فكان يسمع كلامي بكل حلم وارتياح ويزداد هياماً بي . واخيراً زففت اليه كما ترين واصبحت ملكةً سعيدةً في الظـاهر وزوجةً تعسةً في الباطن لاني معرّضة كل لحظة لاشدّ الاخطار . غير ان كلمات الحكمة التي سمعتهـا اليوم من الاسقف كرانمر ستقويّ ضعفي وتنير امامي بعض هذا السبيل المملوء من اشواك الاحزان والتجارب

– وما هي هذه الكلمات الحكيمة التي تعلمتِها من كرانمر ؟

– هي : كونوا حكمآء كالحيات وودعآء كالحمام. والحق يقال اني قد استفدت منها اليوم دروساً كثيرة وكلما اتأمل فيها اشعر بقوة جديدة تدبُّ في عروقي

– حبذا ما تبشرينني به يا سيدتي لان جلّ مرادي ان اراكِ نشيطة مسرورة على الدوام

– سأجتهد ان اكون كذلك ولو شعرت بضعف نفسي وخَور عزيمتي وقد عوّلت ان اجعل لنفسي عملاً يخفف من احزاني ويعود على الامة والبلاد بالخير العميم

– وما هو هذا العمل الذي ترومين القيام به ؟.

– هو المدافعة عن الابريآء الذين ينالهم العقاب بدون رحمة وعدل. وارجو ان تساعديني في هذه المهمة ليكون لنـا ذلك موضوعاً للاهتمام وقطع الاوقات في خير الامة . انت تعلمين مـاذا يحلّ باصحاب التعليم

الجديد من الهوان وان القضاء يحكم عليهم الاحكام المبرمة بدعوى انهم كفرَة وجاحدون مع انهم يعبدون الله كما يعبده كل موءمن . فهوءلاء الناس يجب ان اساعدهم وارد عنهم كيد الظالمين. فهل تعدينني بالمساعدة ؟

فتمتمت حنة بعض كلمات غير مفهومة وصمتت

فذهلت الملكة ونظرت الى وجهها فرأته مكفهراً مرتعشاً فقالت — عرفتكِ يا حنة قبل هذا العهد منذ سنوات عديدة وعرفت وقتئذٍ انك جريئة شريفة لا تكتمين شيئاً مما يجول في خاطركِ فاسألكِ الان ان تصرحي بافكاركِ : هل تعتقدين بقداسة البابا او تتبعين التعليم الجديد الذي نشره لوثيروس وكلفين ؟

فتبسمت حنة وقالت — لو كنتُ كاثوليكية وممن يعترفون بقداسة البابا لما رأيتِ لي وجهاً امامكِ . فاعلمي ايتها المفداة ان جميع البروتستان في انكلترا يحيّون اليوم كاترينا بار ويعتقدون انها صديقتهم ونصيرتهم وبسبب ذلك قام كهنة الكاثوليك يرمونها بكل تهمة ويحاربونها اشد محاربة . فهل يُعقل اني من الحزب الذي يعادي ملكتي وصديقتي ؟ وهل يُعقل اني اعترف بقداسة البابا الذي حرم ملكي وزوج صديقتي ؟ فاذا القيتِ عليَّ ايتها الصديقة اسئلة مثل هذه بعد الان يكون ذلك منكِ دليلاً على عدم ثقتكِ بي

ولما قالت حنة ذلك وقعت على قدمي الملكة وغطت وجهها بردائها . فأنهضتها كاترينا وعانقتها وللحال سمعت وقع اقدام خارج المخدع فارتبكت وقالت — ان الملك آتٍ الى هنا



الفصل الثالث

الملك هنري الثامن

ما كادت الملكة تتم كلامها حتى فُتح باب المخدع وظهر قائد الحرَس الملوكي وبيده عكازة من ذهب فانحنى للملكة وقال — ان جلالة الملك قادمٌ الى هنا !

فارتعدت الملكة لدى سماعها ذلك ولكنها لم تلبث ان تجلَّدت وتقدمت نحو الباب فرأت بضعة اشخاص من رجال القصر يجرُّون كرسياً كبيراً موضوعاً على بَكَر وقد جاس فيه هنري الثامن وهو اشبه بجبل من اللحم يستره البرفير الملوكي وله رأس كبقية رؤوس الآدميين وقلب كقلوبهم غير ان ذلك الرأس كان مفعما بالافكار المظلمة والخواطر السود وذلك القلب ظمآن دوماً الى ارتشاف دمآء الرعية

ولما وقف الكرسي في المخدع دنت الملكة منه وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة . فنظر الملك اليها ببشاشة وهيام وقال للّذين حوله — أُغربوا من امامي لان للملكة الحق في هذا المكان ان تمدّ اليَّ يد المساعدة . اذهبوا كلكم لاني اشعر اليوم بحداثة السن والقوة كأني في سالف ايام شبابي . ولتعلم الملكة ان زوجها مملوءٌ نشاطاً وحياةً وليس شيخاً هرماً كما تصوَّرتهُ

ثم اردف كلامهُ قائلاً للملكة — لا تظني يا كاترينا اني جئتكِ على هذا الكرسي لضعف قواي بل لفرط شوقي اليكِ احببتُ ان اراكِ سريعاً . ولما قال هذا قبلها في جبينها ثم امسك بيدها ونزل عن الكرسي وقال للحضور — اخرجوا الان كلكم من هنا لاني لا اريد ان يسمع احد

ما سيدور بيني وبين هذه المرأة الجميلة من الكلام

ولما خرج الجميع شعرت الملكة بضبابة كثيفة سُدلت على عينيها وخفقان شديد في قلبها وقد ارتعشت شفتاها وتغيَّر لونها . فلحظ الملك ذلك وابتسم . ولما رأت الملكة تبسمهُ قالت في نفسها : « انهُ يبتسم الان ويريد ان يعترف لي بحبهِ كما ابتسم لمن سبقني من الملكات واعترف لهنَّ بحبه . فهاتان الشفتان اللتان تبتسمان لي الان قد تحكمان عليَّ بعد قليل بالاعدام كما حكمتا على غيري ... »

ولما خلا المكان جاس الملك بازآء زوجته ونظر اليها طويلاً كمن يريد ان يستشفَّ اعماق قلبها ثم قال لها — هل تحبينني يا كاترينا ؟

فلما سمعت الملكة ذلك صُبغ وجهها بلون القرمز وعلمت ان التأثير الذي ستؤثره في الملك في هذه اللحظة سيكون له شأن خطير في مستقبل حياتها . ولما خطر لها ذلك تجلَّدت وعوَّلت ان تظهر بمظهر القوة والجرأة فنظرت اليه بثبات جأش وقالت — لا أعلم

فحملق الملك بعينيه وقال — أُقسم بكل مقدس وعزيز لديَّ اني لم أسمع في حياتي جوابًا كهذا ! انكِ امرأة باسلة يا كاترينا وانا اثني على صراحتك الثنآء العاطر لاني احبُّ البسالة والجرأة اللتين لم يتصف بهما احد من رجال بلاطي ... الجميع يُرتجفون امامي ويتزلَّفون اليَّ بكل ذريعة لانهم يعلمون ان كتابة رسالة غرامية او توقيع الحكم بالاعدام سيان عندي وانا احكم على القريب والبعيد بكل عدل وبدون شفقة . وعليه فاعلمي ايتها الحسناء اني آلة انتقام الله وديَّان لرعيتي ... الملوك يلبسون البرفير ليس لانهُ جميل وبديع بل لانهُ أحمر كالدم وللابسيه ملءُ

الحق في سفك دمـآء المجرمين من رعاياهم . هذه هي سلطة الملوك كما افهمها انا وكما أريد ان تكون لي الى آخر ايامي . والحق الذي يميّز الملوك عن سواهم من البشر انما هو حق الانتقام لا الرحمة .. وعلى شفاه الملوك يجب ان يدوي الرعد الالهي وكالصاعقة يجب ان ينزل غضب الملوك على روؤس المجرمين

فلما سمعت الملكة ذلك تولأهـا ذهول شديد ولكنها لم تلبث ان ثاب اليها روعها فأسندت رأسها الى كتف الملك وقالت – ولكن الله ليس اله غضب فقط بل هو اله رحمة ايضاً

قال – بالصواب نطقتِ ايتها الحبيبة وهذا ما يميّز الله عن الملوك

قالت – نعم والملوك اذا اتصفوا بالرحمة والشفقة اكثر من اتصافهم بالغضب والانتقام يكونون اقرب من قلوب الرعية ومن المزايا الالهية

قال – حسن ولكن ما بالكِ ترتعشين يا مليكتي وقد زايل الابتسام شفتيكِ ؟ فلا تخـافي شراً من جهتي ما دمتِ صادقة وامينةً في حقي . والان قولي لي كيف انكِ لا تعلمين اذا كنتِ تحبينني ام لا ؟

قالت – نعم اني لا أعلم ذلك ياذا الجلالة . وكيف لي ان اعرف ما لم اشعر بهِ قط في حياتي

فطفح وجه الملك سروراً وقال – اذا كان ما تقولينه صحيحاً فانتِ لم تحبّي احداً في زمانكِ

– نعم فان والدي قد عاملني اسوأ معاملة فلم اشعر نحوه الاّ بعوامل الخوف والذعر

– وزوجكِ اللورد ؟

— ان اللورد نفيل لم يكن لي زوجاً وانما والدي قد باعني له فدعاني الناس زوجته وكان هو متأكداً عدم حبي اياه فلم يهتم بذلك لانهُ كان شيخاً عليلاً ضعيفاً وكنتُ أُعنى به كما تُعنى الممرّضة بالعليل او الابنة بأبيها لا اكثر ولا اقلّ ولبثتُ كذلك الى حين وفاته

— وبعد وفاته أفلم تحبي احداً ؟ قولي لي الحقيقة بتمامها ولا تخفي عني شيئاً

— لبثتُ بعد وفاة اللورد مدة طويلة لم اخالط فيها احداً وكنتُ اشعر بالوحدة والانفراد فيتولاًني الضجر وكره الحياة الى ان رأيتني منذ بضعة اسابيع لاول مرة

— وبعد ذلك ماذا جرى لكِ ؟

— صرتُ احسُّ بخفوق في قلبي كلما سمعتُ صوتك او قابل نظري نظرك . واذا غبتَ عني كانت تتمثل صورتك في مخيلتي واراك في الاحلام. والان ارجو ان تقول لي ياذا الجلالة هل يُسمَّى ذلك حباً او ما هو هذا الشعور الغريب الذي تولاًني منذ بضعة اسابيع فقط ؟

فصفق الملك بيديه وقال — هذا هو الحب بعينه . نعم يا كاترينا انكِ تحبينني واذا كان ما نطقتِ به صدقاً فانا حبيبكِ الاول واكون قد اقترنتُ بفتاة لا بارملة وهذا ما يزيد هنائي ويضاعف مسرَّاتي

فتورَّدت وجنتا الملكة بجمرة الخجل وأطرقت برأسها الى الارض . فدنا الملك منها وقبلها بلهفة وهو يضمها الى صدره ثم قال — انكِ قد كشفت لي اعماق قلبكِ وابهجتِ بذلك مستقبل حياتي وجعلتِ لنفسي سروراً لم اكن اتوقعهُ . فاعلمي ايتها الحبيبة الفتَّانة اني لن أنسى ذلك ما حييت

وليكن الله شاهداً على ما اقول . ثم انتزع من اصبعه خاتمًا من الالماس فجعلهُ في اصبعها وقال – وليكن لكِ هذا الخاتم تذكاراً لهذا الحديث وإشعاراً مني بقضاء كل ما تسأليتني اياه

وما كاد الملك يفرغ من كلامه حتى سمع ضرب الطبول وقرع الاجراس وتلا ذلك اصوات كثيرة فذهل وفتح باب الشرفة وخرج ليتحقق ماذا جرى في مثل هذا الهزيع من الليل . ولبثت الملكة في مكانها وهي تقول في نفسها : « لقد نجحتُ الان بعض النجاح واستوليت على قلبهِ دون ان اعترف له بحبي وانمـا هو قد فسَّر شعوري كما اراد . ومهما يكن الامر فانا لا أريد ان أُساق الى الموت » . ثم لم تلبث ان خرجت الى الشرفة فأبصرت الملك واقفًا وقد أصغى الى قرع الاجراس والطبول التي كانت تدوي في وسط ذلك الظلام المدلهمّ . وما عتم الاثنان ان رأيا ناراً مشبوبة وقد علا لهيبها الى السماء وسمعا اصواتًا كثيرة وعويلاً شديداً . فالتفت الملك الى الملكة وقال وهو يبتسم – ان هذه الدقائِق القايلة التي قضيتها الان الى جانبك ايتها العزيزة قد أنستني ماصدر مني النهارَ المنقضي من الاوامر المتعلقة بعقاب المجرمين . نعم فهناك الان نار العذاب تشوي اجسام بعض المجرمين وقد اجتمع الاهلون ليشـاهدوا هذه الحفلة على قرع الاجراس وضرب الطبول وبذلك يتمجد اسم الله واسم عظمتي الملوكية

فبهتت كاترينا وقالت – ولكن هل يليق يا مولاي في مثل هذا النهـار السعيد وانت في احسن حالات السرور والهناء ان يموت بعض رعيتك في العذاب والآلام ؟ انا موقنة يا ملكي العزيز انك لا تريد ان

تعكّر عليَّ كأس سعادتي وتجعل صفآء هذا اليوم السعيد مظلماً بمثل هذه الضبابة المخيفة

فضحك الملك وقال — انتِ واهمة يا ريحانتي لاني لا اريد ان اعكّر صفآء هذا النهار بل انما اردت ان ابهجه بهذه اللُّهب الجميلة فهي رمزٌ الى اضوآء عرسنا وهي انما تشتعل الان لمجد اسم الله والملك لانها بارتفاعها الى السمآء تشهد للحضرة الالهية باني وانا في يوم عرسي لا أنسى واجباتي نحو الايمان الحقيقي وأريد ان اطهّرهُ من كل هرطقة واجازي كل مَن عصى وحاد عن جادة الحق والسراط المستقيم وبهذا اكون خادمًا امينًا لله

فلما سمعت الملكة ذلك بهتت وامتقع لونها واعتقدت ان الملك لا يعرف للشفقة معنىً وليس للرحمة الى قلبه سبيل . وبينا كانت تناجي أفكارها وضع الملك يده على عنقها وقبلها وهو يظهر لطفًا زائداً اما هي فذعرت واحست بقشعريرة سرت في كل بدنها وتمثّلت امامها جلاّداً يلمس بيده ضحيتهُ ليرى اصلح مكان فيها لوضع حدّ سيف انتقامه وتذكرت في الحال حنة بولين زوجة الملك الثانية التي ضُرب عنقها بعد مثل هذه الملاطفة وتذكرت كاترينا غوفارد زوجتهُ الخامسة وهي التي دنت منهُ في احد الايام تريد ان تعانقهُ فتلقاها بضربة عنيفة بقي اثرها في عنقها الى يوم سقوط رأسها على النطع . تذكرت الملكة كل ذلك فتنازعتها عوامل الخوف والهلع وارسلت نظرها الى الشارع فأبصرت النيران المتأججة وسمعت اصوات المعذَّبين فازدادت تلهفًا . ولما لم يعد في امكانها الصبر نظرت الى الملك بعينين ملوُّهما الدمع وقالت — اناشدك الله يا سيدي ان ترحم هؤلآء المساكين وتجعل هذا اليوم عيداً لجميع رعاياك

وما كادت تتم هذه الكلمات حتى سُمع من المخدع صوت رقيق كأنهُ صدى صوت الملكة يقول — اشفق ياذا الجلالة على رعاياك !

فأجفل الملك لدى سماعه هذا الصوت وحدَّق ببصره الى الملكة كأنهُ يريد ان يقرأ في وجهها اذا كانت تعلم صاحب هذا الصوت . غير ان كاترينا اظهرت الدهشة والحيرة . واذا بالصوت يقول ثانيةً — اشفق يا سيدي الملك على هؤلاء المساكين !

فقطب هنري الثامن حاجبيه ودخل المخدع وصاح بصوت يخنقه الغضب — مَن هذا الذي اجترأ على ازعاجنا في خلوتنا وجاء يذكِّرنا بالشفقة في هذا المكان ؟

الفصل الرابع

ماري اسكيو

ما كاد الملك يطأ بقدميهِ باب المخدع حتى بادرت اليهِ فتاة ترتعش فرَقًا فوقعت على قدميهِ وقالت بصوت تخنقهُ الدموع — رحماك يا مولاي فانا قد اجترأتُ على المجيء اليك في مثل هذا الوقت لاستعطافك على اولئك المساكين

فعبس الملك وقدحت عيناه شرارًا وكانت الملكة قد تبعتهُ الى المخدع وهي تريد ان تلطّف من حدتهِ وتليّن قلبه . فتقدمت الى الفتاة وقالت — ما هذا يا ماري اسكيو وماذا تريدين هنا ؟

فصاحت الفتاة وهي تشير بيدها الى اللهيب المتصاعد الى السماء —

جئتُ اطلب الشفقة على هؤلاء الابرياء المظلومين الذين يذوقون الان هناك اصناف العذاب والموت وهم من اعرق اشراف المملكة وأصفى رعايا الملك وأخلصهم لسدّتهِ الملوكية

فذعرت الملكة وخشيت ان يتّقد غضب زوجها على هذه الفتاة فيأمر باعدامها فوراً ولذلك تقدمت اليهِ وقالت له بعذوبة صوتها — اشفق يا سيدي على هذه الفتاة لانها لم تقل ما قالته الا مدفوعةً بعواطفها الحارّة فهي لم تتعوّد مثل هذه المشاهد الهائلة ولم تدرك ان من واجبات الملوك معاقبة المجرمين من رعاياهم

فهزّ الملك رأسه ونظر الي الفتاة الجاثية عند قدميه ثم قال للملكة — اظن ان ماري اسكيو هي وصيفتكِ الثانية وقد كان تعيينها بالحاحكِ !

قالت — نعم يا ذا الجلالة

قال — انتِ اذاً تعرفينها من قبل !

قالت — كلاّ يا سيدي وانما رأيتها منذ بضعة ايام فقط

قال — اذا كنتِ لم تعرفيها من قبل فكيف ألححتِ بتعيينها وصيفةً لكِ؟

قالت — لان بعض رجال البلاط قد اثنوا عليها امامي ولما رأيتها وحادثتُها أُعجبت بآدابها وشعرت بارتياحي اليها ومحبتي اياها

قال — ومَن اثنى عليها امامك ؟

فارتبكت الملكة ولامت نفسها على تسرُّعها وعدم تروّيها ولكنها رأت ان لا تخفي عن زوجها شيئاً فقالت — الاسقف كرانمر

وفي هذه اللحظة سُمع من الشارع قرع الطبول وارتفعت اصوات المعذّبين وعلا لهيب النار كثيراً فصاحت ماري وهي لا تزال جاثية عند

قدمي الملك – ألا تسمع يا مولاي زفرات هؤلاء المنكودي الحظ ؟ ألا تحرّك الشفقة الى اغاثتهم ؟ فان أبيتَ الأ معاقبتهم فمُر بضرب اعناقهم اولاً ثم بطرح جثثهم في اللهيب

فلم يجب الملك بكلمة بل تحوَّل الى باب المخدع ففتحهُ وامر الحجَّاب باستدعاء الاسقفين وبعض رجال البلاط . وما هي الأ هنيهة حتى ازدحم مخدع الملكة والدهليز المؤدي اليهِ بالاقدام وقد ادرك الجميع ان هذه الحادثة لا بُدَّ ان تتحوَّل الى مأساة مفجعة

وكان الملك واقفاً في وسط المخدع وقد ارتسمت على محياه علائم الغيظ والحنق . والى جانبه وقفت الملكة وهي ممتقعة اللون مرتجفة الاعضاء . وعلى مسافة قريبة منهما كانت ماري اسكيو جاثية على الارض وقد غطَّت وجهها بيديها واستخرطت في البكاء . وكانت الطبول تُقرَع في الشارع فتملأ الاسماع ويدوي صداها في جميع انحاء القصر

ولما سكنت الحركة في المخدع التفت الملك الى الاسقفين وقال والجلال يرافق كلماته – لقد دعونا كما في مثل هذا الوقت لتخرجا بقوة صلواتكما الشيطانَ الحالَّ في هذه الفتاة لانها تجاسرت على اتهام ملكها وحاكمها بالقسوة والظلم

فدنا الاسقفان من ماري والقيا ايديهما على كتفيها وانحنيا عليها وهما يتمتمان ويصلّيان وقد همس كرانمر اليها قائلاً بلطف ودعة – تشجعي يا ابنتي وليكن الله معكِ . وقال غاردنر بصوت عالٍ والسرور طافح على وجههِ – الاله العظيم الذي يبارك الابرار ويعاقب الخطاة ليكن معكِ ومعنا اجمعين. فلما شعرت ماري بيد هذا الاسقف تلمسها وسمعت صوتهُ اقشعرَّ بدنها

ونفرت منهُ قائلة — لا تمسّني بيدك فما انت الاَّ جلاَّد اولئك التعساء الذين يعذَّبون الان ظلماً . ثم التفتت الى الملك وقالت — اناشدك الله يا هنري الثامن ان تشفق على هؤلاء الناس فانهم مظلومون

فنظر الملك الى ماري طويلاً وهو يزداد حيرةً في امرها ثم قال للاسقفين — سمعتما الان ما وجّهتهُ الينا هذه الفتاة من سهام الانتقاد فأرغب اليكما ان تصرّحا امامها ببيان الجرائم التي اقترفها هؤلاء الناس وكانت سبباً في إعدامهم

فقال غاردنر — هم هراطقة لانهم انقادوا الى التعليم الجديد الذي جاءنا من جرمانيا وصرّحوا بعدم الاعتراف بالسلطة الروحية لسيدنا وملكنا

وقال كرانمر — هم كاثوليكيون يعترفون بسلطان البابا الروحي ويرفضون الاعتراف بسواه رئيساً للكنيسة

فقال الملك — ان هذه الفتاة تعزو الينا الظلم في معاقبة هؤلاء المجرمين ويُخيَّل لي اننا نكون اشدَّ ظلماً لو أغضينا عن معاقبتهم

فصاحت ماري — لو رأيتَ ايها الملك ما رأيتهُ انا لاضطربتَ من هول ما رأيتُ وبادرتَ من ساعتك الى محل الاعدام وصرختَ مثلي طالباً الشفقة والرحمة

فتبسم الملك وقال — وماذا رأيتِ ايتها الفتاة ؟

فوثبت ماري على قدميها ونظرت الى الملك بثبات جاش وقالت — رأيتُ بين هؤلاء الذين تدعونهم مجرمين سيدةً نبيلةً شريفةً لا يمكن ان تخطر لها الخيانة لجلالتك . ساقها رجالك ايها الملك الى موضع العذاب فسارت بينهم وضياء اكليل الشهادة ينير وجهها وشعرها الابيض يتلألأ

باشعة فضية لامعة. ولما رآها الخلق المزدحم طأطأوا الرؤوس اجلالاً وذرفوا الدموع السخينة تأثراً . . عاشت هذه السيدة اكثر من سبعين سنة وكانت آية الشرف والنبل وعنوان الفضيلة والشهامة فلم يدعها رجالك تنحدر الى قبرها بسلام بل ساقوهـا الى النطع لمجد الله والملك ! ! فسارت بين معذِّبيها وهي تبتسم للشعب الباكي حولها . . قضت هذه المرأة قبل هذا التاريخ سنتين في السجن ولما رأى رجالك ان هذه المدة لم تقوَ على اذلال روحها الكبيرة او اضعاف نور عينيها او قتل الشجاعة في نفسها اخرجوها من السجن ليذيقوها ضروب العذاب وليس لها اثم البتة . . ولما رقيت النطع أجالت نظرها في الجموع المحتشدة وقالت — اني سأبتهل الى الله من اجلكم . . ثم دنا منها الجلاَّد وامرها ان تعطيه يديها ليوثقهما ثم تركع وتضع رأسهـا على النطع فنفرت منهُ وصاحت بهِ قائلةً : لا يُعامَل بمثل هذه المعاملة الا اللصوص والمجرمون واما انا فلستُ مضطرَّةً الى الرضوخ لشرائعكم الدموية الجائرة ما دام فيَّ رمق . ثم طفقت تركض حول النطع والجلاَّد يتبعها بفأسهِ ويضربها بها كلما ادركها وهي تزداد عدْواً والدم يتدفق من جميع اطرافها والجلاَّد يجهد نفسه ليجهز عليها والناس يبكون وينوحون وقد تفتَّتت اكبادهم الى ان نزف دمها فسقطت على الارض متلاشية القوى . وكان الجلاَّد قد اعياه الركض فسقط ايضا الى جانبها . وكان رئيس القضاة واقفاً ينظر الى هذا المشهد الوحشي فلم يملك نفسهُ من البكاء ولكنهُ اتباعاً للاوامر امر بايقاف العمل ريثما تفيق هذه التعسة من غيبوبتها . ولهذه الغاية حملوها الى النطع واخذوا يعالجونها بالمنبهات . وسقوا الجلاَّد جرعةً من الخمر لتعود اليهِ قواه ويزداد نشاطاً بازاء ضحيته . . وكانت الجماهير قد

تحوّلت بابصارها عن هذا المشهد الفظيع الى اربعة رجال ابرياء قادهم المعذّبون الى النار المستعرة .. وكنتُ ايها الملك في جملة الحضور فتركتُ الشارع وأسرعت اليك لاسألكَ العفو والرحمة لهذه المرأة المظلومة قبل ان ينفذ فيها القضاء . ولعلك عرفتَ انها الكونتة سمِرست وهي البقية الباقية من الاسرة البلانتاجينية (١)

كانت ماري اسكيو تتكلم والملك مصغٍ اليها بكل حواسّهِ وجميع الحضور مبهوتون صامتون كأن على رؤوسهم الطير . فلما فرغت دنت الملكة من زوجها وقالت وقد طفر الدمع من عينيها — اشفق يا مولاي على الكونتة سمِرست !

وتبعها الاسقف كرانمر . ثم تلاه بعض الحضور همساً

فنظر الملك الى وجوه باقي الحضور وقال لغاردنر — وانت ايها الاسقف ألا تريد ان تضمَّ صوتك ايضاً الى ذوي هذا الشعور الرقيق ؟

فأجاب غاردنر بعظمة — كلٌّ يُجزى باعماله فلو لم يكن هوءلاء الناس مجرمين لما حلَّ بهم العقاب . والله يحبُّ الانتقام من المجرمين ونسلهم الى الجيل الثالث والرابع

فقال الملك — أصبتَ فلا رحمة للاشرار ولا شفقة على المجرمين .

---

(١) تولَّت الاسرة البلانتاجينيَّة عرش المملكة الانكليزية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١٣٩٩ وزعيمها هو الكونت جوفروا بلانتاجنيت كونت انجو وقد اشتهر بهذه الكنية لانه كان من عادتهِ ان يزيّن خوذته بحشيشة البلانتاجنيت (Planta-genista) واشهر ملوك هذه الاسرة ريكاردوس الملقب بقلب الاسد . وبعد انقراضها آل الملك الى اسرة لانكستر ثم الى اسرة يورك وهما متسلسلتان منها . وبعد اسرة يورك حكمت اسرة تيودر التي كان منها هنري الثامن بطل هذه الرواية

بل فلتحلّ بهم النقمة ولتأ كلهم نار المذاب

فقالت ماري – ولكن لا تنسَ ايها الملك انك لرعيتك بمقام الاب الشفيق والحاكم العادل وقد دعوتَ نفسك رئيساً للكنيسة ايضاً فكن رحياً لانك ملك « برحمة الله »

فقال الملك عابساً – كلاَّ بل انا ملك « بغضب الله » ووظيفتي ان ارسل الى الله جميع الأئمة والمجرمين ولهُ ان يرحمهم اذا شاء . . انا قاضٍ منتقم اجازي المذنبين بمقتضى الشريعَة وبدون شفقة . فاذا اراد احدٌ منهم او من مريديهم ان يلتمس الرحمة لهم فليلتمسها من الله وليس مني لاني لا اقدر ولا اريد ان ارحم احداً قط

فارتعشت ماري وقالت – الويل لك والويل لنا اجمعين . . ان هؤلاء التعساء الذين امرتَ اليوم بقتلهم ظلماً قد دعوك بعدلٍ ظالماً مستبداً وباغياً شريراً . . وبابا رومية حرمك ودعاك كافراً وجاحداً . . وكل واحد من رعيتك يمقتك ويقشعرّ بدنه لدى ذكر اسمك لانك لا تعرف الله ولا تريد ان تعرف انهُ اله المحبة والشفقة وقد قال : احبّوا اعداءكم باركوا لاعنيكم . . .

فلما سمعت الملكة هذا الكلام ذاب فؤادها جزعاً وخشيت ان يفور غضب الملك فيبطش بماري في تلك الساعة . وقد شعرت بشجاعة غريبة دبّت في كل جسمها فتقدمت وابعدت ماري بعنف ثم اخذت يد الملك فقبلتها وقالت همساً – قلتَ لي منذ ساعة ياسيدي انك تحبني فأظهر لي محبتك الان بالصفح عن هذه الفتاة الغبية لانها لا تدري ما تقول . . . اسمح لي ان آخذها الى غرفة اخرى لتعود الى رشدها

وكان الغضب قد اخذ من هنري الثامن كل مأخذ وقد انقلبت سحنتهُ وتطاير الشرر من مقلتيه فدفع الملكة عنهُ وقال — بل اريد ان اسمع كل ما ارادت ان تقولهُ هذه الفتاة

وعادت ماري الى حديثها فقالت — لبَّيك ايها الملك فاسمع . اني قد علمتُ السبب الذي حملك على الانتقام من هذه الكونتة الشريفة والذي لاجله لا تريد ان تعفو عنها . ذلك لانها من سلالة الملوك والكردينال بوليوس ابنها فانت تريد معاقبتها لانك لا تستطيع ان تنال الكردينال بسوءٍ فأمرتَ بقتل والدته تشفيًا

فقهقه الملك ضاحكًا بازدراءٍ وقال — يُخيَّل لي انكِ مع صغر سنّك عالمة بخفايا القلوب ايضًا . وانتِ بلا شك من اشدّ انصار الكنيسة الكاثوليكية لانكِ تدافعين عن الكونتة بمثل هذه الجراة الغريبة . فيلزمكِ اذاً ان تعترفي بصحة انفاذ الحكم في المجرمين الآخرين لانهم هراطقة لا يريدون ان يعترفوا بسلطة البابا الروحية

قالت — انتَ واهمُ ايها الملك لانك تدعو هؤلاء الناس هراطقة بمجرَّد عدم اعترافهم برئاستك للكنيسة كما انك لم تعترف انت برئاسة البابا لها . . انهم يؤمنون بان للكنيسة رأسًا واحدًا وهو الله وتراهم يحتملون كل محنة وعذاب في سبيل ايمانهم فكيف ساغ لك ان تسميهم هراطقة وهم لم يبتدعوا شيئًا في الدين ؟ ومَن يستطيع ان يدعوهم مجرمين وما هم الا عنوان المحبة والفضيلة وطهاره السيرة ؟

فلما سمع الملك منها ذلك ارغى وازبد كالجمل الهائج وصاح قائلاً — انا ادعوهم هراطقة ومجرمين وسأسحقهم واطهِّر الارض منهم ومن امثالهم

الذين يعتقدون اعتقادهم لان الله يُنزل وحيهُ اليَّ في النـار والدم وقد سلَّمني سيف الانتقام لأَقتل تنِّين الهرطقة واطهِّر الكنيسة من جراثيم الفساد والضلال

ثم التفت الى جمهور الحاضرين وقال بصوت جهوري — اعلموا ايها الناس ان الاله العظيم قد اختارني للرئاسة والسلطة والانتقام فانا رئيس الكنيسة الاعلى وانا الجلاَّد الالهي . فَمن اعترف بغير رئاستي وسجد لغيري احسبهُ مارقاً من الدين ومن تَبَعَة البعل . . اسجدوا كلكم لي لاني نائب الله على الارض وممثله في عظمتهِ الالهية . . اركعوا امامي فأَنا هو رئيس الكنيسة الوحيد

وما كاد الملك يفرغ من كلامهِ حتى جثا جميع الحضور وفعل كذلك الاسقفان والملكة الاّ ماري اسكيو فانها لبثت واقفة على قدميها وعلائم الانفة والازدراء ظاهرة في وجهها . فارتعد الملك وأعطى اشارة للجميع فنهضوا ثم صوَّب الى ماري نظراً حاداً وقال — وانتِ يا ماري اسكيو ألا تريدين ان تخضعي لامري وتسجدي لي ؟

فقالت — اريد ان اخضع لك كملك ولكنني لا أُريد ان اسجد لك كاله او كرئيس الكنيسة واذا جثوتُ امامك فانما اجثو لملكي

فظهر السرور على وجه الملك لانهُ رأى الان ضحيةً جديدةً يستطيع ان يُنشب فيها مخالب انتقامها

كان هنري الثامن يظهر سروراً عظيماً كلما تسنَّى لهُ الحكم على احد من المجرمين لتيقنهِ ان عظمة الملوك لا تظهر الا بسفك الدماء وان هذه هي المزية الوحيدة التي تميز الملوك عن سواهم من البشر

ولذلك فلما فرغت ماري من الكلام نظر اليها بوجه يطفح حبوراً وقال بلطف — هل تعلمين ياماري اسكيو انكِ بهذا الكلام قد اهنتِ ملككِ؟

فاجابت الفتاة بكل رزانة — نعم اني اعرف ذلك ولكنني لم انطق الا الحق

قال — وهل تعلمين ماذا تستوجب هذه الاهانة ؟

قالت — الموت

قال — نعم الموت حرقاً

وكانت الملكة واقفة تصيخ بسمعها الى ما يدور بين زوجها ووصيفتها وهي في اشدّ الاضطرابات النفسانية . فلما سمعت كلام الملك الاخير طارت نفسها شعاعاً وتقدمت تريد ان تشفع بماري فاستوقفها الاسقف كرانمر باشارة خفية ثم همس اليها قائلاً — مكانكِ يا سيدتي الملكة ! ولا تخاطري بحياتك الثمينة لانقاذ ماري لانها هالكة لا محالة وليس لكِ ان تثني الملك عن عزمه

فاجابت الملكة بصوت خافت — وكيف ادعها تموت دون ان امدَّ لها يد المساعدة ؟

قال — ان ذلك لا يمكن ان يُتاح لك في مثل هذا الوقت فقد صدر حكم الملك وقُضي الامر . واذا حاولتِ انقاذها الان فلا يبعد ان تهيجي غضب الملك عليها فيأمر بانفاذ الحكم فيها حالاً

فتنهدت الملكة وسكتت

وعاد الملك الى حديثه فقال — نعم يا ماري اسكيو انك تستوجبين اشدّ العذاب فستشويكِ النار المستعرة وتكونين عبرةً لمن اعتبر

